الفصل السابع

الثقافة : مفهومها و تصنيفاتها و نظرياتها

أهمية دراسة الثقافة :

عرف الإنسان منذ القدم أن الناشئة الصغار لاينضجون اجتماعيا وثقافيا ما لم نوقفهم على السبيل إلى ذلك . والأطفال بدورهم يدركون أن أساليب الرشد تكتسب عن طريق الكبار . واكتشف كل مجتمع أن نقل ثقافته لايمكن أن يترك للمصادفة . وعليه أن يوجه عملية نقلها لأفراده ليضمن نقل العناصر الثقافية التي يعتقد أنها ضرورية ولازمة لهم للمحافظة على استمراره وتجديد حيويته . ولذا فإن كل مجتمع يشرف على تربية أفراده . وكل واحد منا في مرحلة معينة من طفولته يربى بطريقة مقصودة ، وقد لايتم ذلك بالضرورة في المدارس مع أنها إحدى الوسائل الهامة في التربية .

فالتربية إذن تنتمي إلى العملية العامة المعروفة باسم التثقيف ، وبواسطتها ينخرط الشخص في طريقة الحياة بمجتمعه . ولفهم ديناميات التثقيف في تأثيرها على التربية ينبغي علينا أن نتجه إلى علم الإنسان . ولعلنا نكتفي بمثال واحد هو أن الثقافات كما نعلم تختلف في درجة الانقطاع التي تفرضها بين الطفولة والنضج . ففي بعض الثقافات يكون التقدم إلى المراهقة ممهدا وغير مقطوع . ولكن في بعضها الآخر كما هو الحال في ثقافتنا العصرية يتطلب الأمر من المراهق أن يستكشف بنفسه فجأة طريقة الحياة وما يترتب على ذلك من توتر وصراع نفسي . وتثير هذه المسألة أسئلة على جانب كبير من الأهمية أمام التربية من أهمها : إلى أي حد يكون الانقطاع أو عدم الاستمرار محتوما بالنسبة لكل شخص ينشأ في مجتمع عصري أو صناعي حديث ؟ وإلى أي حد يمكن التخفيف من ذلك ؟ وكيف يؤثر الانقطاع في دور المدرسة وطرائق التعليم بها ؟

إن التربية كتعليم بالمدارس ليست إلا إحدى وسائط التثقيف ، ونخص بالذكر منها الأسرة والمؤسسات الدينية ، ومجموعة الأتراب أو الأقران ، ووسائل الاتصال الجماهيرية كما أشرنا . ولكل منها قيمها وأهدافها الخاصة . ولهذا فعلى الرغم من أن المربي قد يريد صقل صفات معينة عند الطفل مثل التفكير الواضح والحكم المستقل ، فإنه يجد نفسه قاصرا عن عمل ذلك لأن هناك وسائل

أخرى تؤثر على تشكيل الطفل بطريقة مختلفة . فالتليفزيون يقدم المعلومات من آن لآخر وله منهجه الخفي . وهو أيضا يقدم التسلية والإعلان والدعاية فيهز المشاعر أحيانا . ويعمل على ترويج البضائع من خلال التلميح والتأكيد والإغراء . فهل نستطيع بمثل تلك الوسائل أن ننتج عقولا صافية التفكير ومستقلة ؟ وإلى أي حد تستطيع المدرسة أن تتعاون مع وسائط التثقيف الأخرى ؟ وإلى أي حد يجب عليها أن تعارضها ؟ وإلى أي حد تتنازع هذه الوسائط الواحدة منها مع الأخرى؟ وإلى أي حد تعد حليفة مع المدرسة ومؤيدة لدورها . إن رسم السياسات المناسبة للمدرسة يحتم على المربي أن يعرف طبيعة ومدى الوسائط التثقيفية . ولهذا ينبغي عليه أن يولي وجهه شطر علم الإنسان والثقافة .

والتربية كقطاع في الشبكة العظيمة للثقافة تستجيب للأحداث الواقعة في أجزاء أخرى منها . وقد تؤثر في بعض الأحيان في هذه الأحداث ذاتها . وفي الثقافة العصرية الصناعية يمثل العلم وتطبيقه في التكنولوجيا أداة كبيرة للتغيير . والعالم الغربي يعيش فيما أطلق عليه اسم الثورة الصناعية الثانية . فالثورة الصناعية الأولى تدور حول محور الآلة البخارية وآلة الغزل ، وبهما حلت الآلة محل العضلة . أما الثورة الصناعية الثانية فقد جمعت قوتها الدافعة منذ عام ١٩٤٥ على الرغم من أنها بدأت قبل ذلك من خلال هذا القرن . فهذا الثورة التي تدور حول الذرة والكيماويات والآلات الحاسبة ، والآلات ذاتية الحركة قد زادت إلى حد بعيد من الطاقة التي نستطيع إنتاجها . وقد بدأت في إحلال الآلات محل الفكر البشري وتحكمه .

وهذه الثورة أكبر بكثير من الثورة الأولى في اعتمادها على الخبير الفني والمهني أكثر من اعتمادها على الهاوي المثقف . لقد أثرت هذه الثورة في مستوى التعليم بالمدارس والمعاهد واهتمت بعمق التخصص الفني والمهني . يضاف إلى ذلك أن المجتمع المعاصر مطرد الزيادة في التخصص مما يؤثر أيضا في مهنة التعليم . وهو يحتاج إلى أعداد متزايدة من الفنيين المهنيين والإداريين والمرشدين النفسانيين والباحثين والمختبرين وغيرذلك من الخبراء . والتربية بدورها ترفع مستوى التقدم في العلم والتكنولوجيا بانتاج علماء وتكنولوجيين مدربين على درجات أعلى باستمرار .

وفي مجتمع متطور يعتمد على التخصص ويتسارع فيه وقع التغيير تكون

مهمة المدرسة في نقل الثقافة صعبة ومحفوفة بكثير من المشكلات . فحجم المعرفة مترامي الأطراف دائب النمو . وليس هناك اتفاق عام على ما ينبغي أن يتعلمه التلميذ . والمعرفة في نفس الوقت تزداد باستمرار في مجال التخصص . وعلى التلميذ أن يتعلم أكثر فأكثر لامتلاك ناصية تخصصه من ناحية ، ولاستيعاب الثقافة ككل من ناحية أخرى . وأكثر من هذا فإن التغير السريع المستمر يجعل من الصعب التنبؤ بما يجب على الجيل القادم أن يعرف . ولهذا كلما زاد عدد الأشياء التي يجب تعلمها ، فإن الزمن المقضي في تعلمها يجب أن ينقص أو أن تستحدث طرائق أفضل من التعليم والتدريس ، أو أن يأخذ التدريس المرونة بالفعل لإيصال مختلف المواد . ذلك أن قدرة الإنسان الحديث في تجميع المعرفة تفوق قدرته على اختراع الطريقة المناسبة لإيصالها . ويتطلب وجود مثل هذه الطريقة لإيصال المعرفة الجديدة استحداث أساليب متطورة كما هو الحال في التعليم بالآلات أو التعليم المبرمج أو بالحاسب الآلي على سبيل المثال .

إذن لكي نفهم ما يستطيع نظامنا المدرسي إنجازه ينبغي على المربين أن يتضافروا مع غيرهم من علماء الإنسان للتوصل إلى تصور واضح لعملية التربية في إطار الثقافة ككل . وتستطيع التربية أن تفيد فائدة كبرى من دراستها للمناهج التربوية للثقافات الأخرى سواء كانت بدائية أم حديثة . ويستطيع المربي الذي يدرس التربية في الثقافات الأخرى أن يتعلم من خبرات هذه الثقافات ، وأن يدرس نظام مدارسه بطريقة أكثر موضوعية . وعلى الرغم من أن المسألة قد تستدعي الانتظار حتى يوضع نظام عام يصلح للتطبيق على النظم التربوية بجميع الثقافات ، فلابد من القيام بالمحاولة . وعلى المربي أن يتقدم بحرص . ذلك أن الثقافات فريدة في أنواعها ويصعب مقارنتها .

معنى الثقافة :

تشير المعاجم العربية في كلامها عن مادة " ثقف " إلى المعاني العربية لها فتقول : " ثقف الشيء " بكسر القاف ، أي ظفر به . وفي التنزيل الحكيم: "واقتلوهم حيث ثقفتموهم"أي حيث ظفرتم بهم.وثقف الرجل صار حاذقا فطنا. وثقف الشئ "بتشديد القاف" أقام المعوج منه وسواه.وثقف الرجل ولده.أدبه وهذبه وعلمه . والثقافة هي العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها . وهي كلها معان تقترب من المعنى الذي يشيع استخدامه على ألسنتنا في كتاباتنا.

بيد أن مفهوم الثقافة في اللغات الغربية يرجع إلى كلمة Culture التي تستخدم في الزراعة ويقصد بها تنمية الأرض وزراعتها . وأصبحت الكلمة تستخدم لتعبر عن زراعة الأفكار والقيم الاجتماعية وتنميتها في الشخصية الإنسانية .

وفي سنة ١٨٧١ نشر السير إدوارد تيلر (١٨٣٢ ـ ١٩١٧) أول تعريف له عن الثقافة بأنها مركب كلي يتضمن ألوان المعرفة والمعتقدات والأخلاق والعادات والقوانين والفنون وغيرها من الأمور التي يكتسبها الفرد أو يتشربها كعضو في المجتمع . وقد خضع هذا التعريف فيما بعد لمزيد من التدقيق والتفسير . ومن أوائل التعريفات الحديثة للثقافة ما يقدمه لنا روبرت ريد فيلد (١٨٩٧ ـ ١٩٥٧) أن الثقافة شكل منظم للتفاهم الجمعي المتعارف عليه ، يأخذه الخلف عن السلف.

والثقافة كما تستخدم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا يقصد بها الكل المركب الذي يميز حياة الجماعة بمعنى أن الثقافة تمثل جميع طرائق الحياة التي طورها الناس في المجتمع . وتعني بذلك طريقة الحياة المشتركة برمتها لدى شعب معين بما فيها طرقهم في التفكير والتصرف ومثلهم العليا كما يعبر عنها في الدين والقانون واللغة والفن والعرف والتقاليد ، وتشمل كذلك المنتجات المادية مثل المنازل والملابس والأدوات . ونحن قد نتناول الثقافة كسلوك متعلم مشترك من أفكار وتصرفات ومشاعر لدى شعب معين مضافا إلى ذلك منتجاتهم المصنوعة والمادية . ونعني بكلمة "متعلم" أن هذا السلوك ينتقل بطريقة اجتماعية وليس بطريقة وراثية . ونعني بأنه مشترك أن يمارس بواسطة كل الشعب .

وثقافتنا تعني طريقتنا في الأكل والشرب والنوم والملبس . إنها اللغة التي نتكلم بها والقيم والمعتقدات التي نتمسك بها . إنها المظاهر المادية التي تحيط بنا والسلع والخدمات التي نشتريها والطريقة التي نشتريها بها . . إنها الأسلوب الذي نعامل به أصدقاءنا والغرباء عنا . إنها الطريقة التي نربي بها أطفالنا والطريقة التي يستجيبون بها . إنها وسائل الانتقال التي نستخدمها وألوان الترفيه التي نستمتع بها .

إذن كيف نميز بين الثقافة والمجتمع ؟ إن المجتمع هو شعب متمركز في مكان معين يتعاون بعضه مع بعض عبر حقبة من الزمن من أجل أهداف معينة .

والثقافة هي طريقة هذا المجتمع في الحياة . أو هي تلك الأشياء التي يفكر فيها أعضاؤه ويحسون بها ويضطلعون بها. وكما يقول " فليكس كيسنج " : " يمكن أن نحدد الأمر بغاية البساطة بالقول بأن (الثقافة) تركز على عادات الشعب ، بينما يركز (المجتمع) على الشعب نفسه الذي يمارس هذه العادات . نعم إن الحيوانات والحشرات تعيش هي أيضا في مجتمعات ، بل إن بعض الحيوانات مثل قطعان الأيل لها " أسر " و " قادة " . ولكن سلوكاً اجتماعيا كهذا هو سلوك غريزي وليس سلوكا مكتسبا . ومن ثم فإنه لم يفض إلى قيام ثقافة . إن من أهم خصائص الثقافة أنها مكتسبة وتراكمية . ولهذا فهي خاصة بالإنسان دون غيره من مخلوقات الكون .

على الرغم من انقسام سكان العالم إلى مجموعات ثقافية فرعية أو تحتية . فإن هناك عناصر ثقافية تربط بينهم جميعا . ويمكن أن نطلق على هذه العناصر في مجموعها الثقافة العالمية . وفي مقدمة هذه العناصر الثقافية المشتركة الانتماء المكاني إلى كوكب الأرض ، والانتماء السلالي إلى جنس البشر فكلنا لآدم . كما أن كل سكان العالم ينتظمون في أسر وعائلات . وكلهم ينتمون إلى دين أو عقيدة بصرف النظر عن اختلاف هذه الأديان والعقائد . وكل سكان العالم يمارسون نوعا من التربية مدرسية كانت أو غير مدرسية ، وللقلة أو للكثرة وكلهم يواجهون أخطاراً مشتركة مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والتدمير الذري ونضوب المصادر الطبيعية والأمراض الفتاكة وما شابه ذلك . وبالطبع فإن الممارسات الخاصة بهذه العناصر الثقافية تختلف من مجتمع لآخر . وليست هناك معايير أو وسائل موضوعية يمكن بها الحكم أو المفاضلة بين هذه الممارسات .

بيد أنه يمكن التمييز على مستوى الثقافة العالمية بين مجموعتين كبيرتين متميزتين : إحداهما تعرف بالثقافة الشرقية،والأخرى تعرف بالثقافة الغربية. وقد كتب الكثير عن الفروق بين هاتين المجموعتين الفرعيتين من الثقافة العالمية . وتوصف الثقافة الشرقية بأنها روحانية في طابعها العام،في حين توصف الثقافة الغربية بالمادية المفرطة . أو ما يعبر عنه أحيانا بروحانية الشرق ومادية الغرب .

ومن المفهوم بالطبع أن كلا من الثقافة الشرقية والغربية تنقسم بدورها إلى عدة ثقافات فرعية . فالثقافة الأمريكية مع انتمائها إلى الثقافة الغربية تختلف عنها في كثير من الجوانب . وبالمثل يمكن أن يقال عن الثقافة الشرقية : فثقافة

الصين رغم انتمائها للشرق تختلف عن ثقافة الهند . وكذلك الثقافة العربية تختلف عن غيرها من الثقافات ، وهكذا . ومع أن هناك عبارة مشهورة لأحد المفكرين الغربيين المعاصرين لعله بسمارك تقول بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، فإن العالم الحديث كلما تقدم يضيق بمن فيه . ويزداد التقارب بين شعوبه . وتتوحد جهودهم في مواجهة الأخطار التي تتهدده وفي مقدمتها الحرب والجوع والفقر والمرض والجهل والتلوث البيئي والإرهاب والمخدرات والبطالة .

ويقدم لنا " رالف لنتون " مثالا طريفا على الاعتماد المتبادل للثقافات في مختلف المجتمعات . ويضرب مثالا من واقع الثقافة الأمريكية ، وإن كان يصدق بالطبع على ثقافات أخرى فيقول : (لنتون : ص ص ٤٢٩ - ٤٣١) .

يستيقظ المواطن الأمريكي الميسور الحال من النوم ليجد نفسه في سرير صنع على غرار نموذج نشأ في الأصل في الشرق الأدنى ، ثم أدخلت عليه تعديلات في أوربا الشمالية قبل نقله إلى أمريكا ، ثم يرد عن جسمه ما تدثر به من غطاء مصنوع من القطن الذي نشأت زراعته في الأصل في الهند أو من الكتان الذي نشأ في الشرق الأدنى أو من صوف الأغنام التي ربيت في الأصل في الشرق الأدنى ، أو من الحرير الذي اكتشف استعماله في الصين . أما طرق غزل هذه المواد وحياكتها فقد اخترعت كلها في الشرق الأدنى.ثم يضع صاحبنا قدمه في "شبشب" اخترعه الهنود في مناطق الغابات الشرقية ويتوجه إلى الحمام الذي تمثله تجهيزاته الشابة مزيجا من مخترعات أمريكية وأوروبية تعود كلها إلى عهد متأخر .

وفي طريقه إلى الفطور يقف ليبتاع صحيفة ويدفع ثمنها على شكل عملة اخترعها في الأصل الليديون في آسيا الصغرى . وفي المطعم يصادف مجموعة جديدة كاملة من عناصر اقتبست كلها من ثقافات المجتمعات الأخرى . فالصحن الذي يأكل منه مصنوع من الخزف الذي اخترعه الصينيون ، والسكين مصنوع من الصلب اخترع في الأصل في جنوب الهند ، والشوكة اختراع إيطالي ظهر في القرون الوسطى والملعقة مقتبسة من أحد الأشكال الرومانية القديمة . ويبدأ فطوره بتناول برتقالة من شرق البحر الأبيض أو قطعة من الشمام من إيران أو ربما قطعة من البطيخ الأفريقي . وأثناء الفطور يشرب القهوة وهي من نبات ظهر في الأصل في أثيوبيا .. ويتناول بعض الكعك أو الفطير الذي تطورت أساليب صناعته في

اسكتدينافيا من القمح الذي طورت زراعته في الأصل آسيا الصغرى . . وبعد الفطور . . يطالع صحيفة على شكل حروف اخترعها قدماء الساميين ، أما الورق الذي طبعت عليه فقد اخترع في الصين ، بينما اخترعت عملية الطباعة في ألمانيا . . وهكذا .

مضمون الثقافة :

من الممكن ترتيب مظاهر الثقافة بطرق متعددة. فهي مثلا يمكن أن تصنف كمناشط مكتسبة مثل ارتياد دور العبادة والتزاور والتعامل الاجتماعي . كما يمكن أن تصنف كأفكار مكتسبة كالاعتقاد في الله وكراهية العنصرية والحرب . وكنتاجات مادية كالسيارات والآلات والأبنية والطرق وغيرها . ولقد تصنف هذه الظواهر أيضا إلى تكنولوجيا (الوسائل التي بواسطتها يعالج العالم المادي) وإلى تنظيم اجتماعي (المناشط والمؤسسات المتضمنة في سلوك أفرادها بعضهم مع بعض) وإلى أيديولوجية(المعرفة والقيم والمعتقدات التي تتضمنها الثقافة) .

وهكذا يمكن أن نميز بين ما يسمى بالجانب المادي للثقافة وهو يشمل كل المظاهر المادية في المجتمع من مبان وطرق ومواصلات وغيرها . وبين الجانب المعنوي للثقافة ويشمل اللغة والدين والعادات والتقاليد والقيم .

تصنيف الثقافة :

من أحسن التصنيفات المعروفة للثقافة التصنيف الثلاثي " لرالف لينتون " إلى عموميات وخصوصيات وبديلات (Linton : p.360) .

١ ـــ العموميات : هي العناصر الثقافية العامة المشتركة بين جميع الأعضاء البالغين العاقلين في المجتمع ، وتشمل اللغة والدين والمعتقدات والقيم الاجتماعية والأفكار والعادات والاستجابات العاطفية وعلاقات القرابة والنماذج المثالية للعلاقات الاجتماعية والأزياء والسكن والمظاهر المادية الأخرى .

٢ ـــ الخصوصيات : تشمل العناصر الثقافية التي لايشترك فيها كل السكان وإنما يشترك فيها أعضاء مجموعة معينة تحظى باعتراف المجتمع . وتدخل في هذه الفئة جميع النشاطات المتنوعة التي تعتمد بعضها على بعض اعتمادا متبادلا ، والتي أسندت إلى قطاعات مختلفة من المجتمع على

أساس توزيع العمل . فهناك في جميع المجتمعات أشياء لايصنعها أو لايعرفها إلا جزء معين من السكان ، يؤدي خدمات لصالح الكل ورفاهيته. فمثلا نجد أن لدى جميع النساء في مجتمع ما إلمام بمهن وطرق فنية معينة ، بينما يلم الرجال بمجموعة أخرى مختلفة من المهن والصنائع . والشائع هو أن الرجال والنساء لايعرفون عن الجوانب الثقافية الخاصة بالجنس الآخر إلا معرفة عامة غامضة نسبيا . ويمكننا أن نصف من هذه الفئة من العناصر الثقافية تلك النشاطات التي يقوم بها أصحاب الحرف والمهن والوظائف كرجال الدين والأطباء والمهندسين والمعلمين والمحامين والحدادين والنجارين .

وفي معظم الحالات تكون العناصر الثقافية الداخلة في هذه الفئة مهارات يدوية ومعارف فنية . ويعني القسم الأكبر منها بأمور تتعلق باستغلال البيئة الطبيعية والسيطرة عليها . ومع أن أفراد المجتمع لايشتركون كلهم في هذه العناصر فإنهم يستفيدون من خدماتها والفوائد الناتجة عنها . كما أن لديهم جميعا فكرة واضحة إجمالا عن النتاج الذي يجب أن ينتهي إليه كل نشاط تخصصي . مثلا قد لايكون لدى الفرد إلا فكرة عامة عن العمليات التي ينطوي عليها صنع الخبز ، ولكنه يتمتع بوعي كبير يمكنه من الحكم على مدى جودة الخبز الذي تم إعداده . ويصدق هذا القول على نشاطات الطبيب أو رجل الدين أو المعلم وغيرهم .

٣ ـ البديلات : تشمل العناصر الثقافية التي لاتندرج تحت العموميات أو الخصوصيات . وهي توجد في كل مجتمع ، ويشترك فيها أفراد معينون ، ولكنها ليست شائعة عند جميع أعضاء المجتمع أو حتى عند جميع أعضاء أي فئة من الفئات المعترف بها اجتماعيا . والعناصر الثقافية التي يمكن تصنيفها تحت هذه الفئة متنوعة وواسعة جدا في مجالها إذ تضم الأفكار والعادات الخاصة التي كثيرا ما تنفرد بها عائلة معينة دون غيرها . كما تضم أشياء أخرى كاتجاهات المدارس الفنية المختلفة في النحت والرسم والأدب وغيرها من الفنون . وتلتقي هذه العناصر البديلة في نقطة واحدة هي أنها تمثل ردود فعل مختلفة للأوضاع ذاتها أو وسائل فنية مختلفة لتحقيق الغايات نفسها . وهذه العناصر تكون عادة قليلة نسبيا في

ثقافات المجتمعات الصغيرة التي تعيش في ظروف بدائية ولكنها تكثر جدا في ثقافة المجتمعات المعاصرة التي نعيش فيها . ومن أمثلتها استعمال الخيول والدراجات والخطوط الحديدية والسيارات والطائرات لتحقيق غاية واحدة هي النقل والانتقال . وتشمل بديلات الثقافة أيضا الاهتمامات والأذواق التي تظهر مثل الموضات والتقاليع على سبيل المثال. وتعتبر بديلات الثقافة أكبر الجوانب عرضة للتغيير . فهي تتغير بسرعة ويحل محلها مظاهر أخرى سرعان ماتتعرض لنفس ما تعرضت له سابقتها من التغيير . أما الخصوصيات فإنها أقل مقاومة للتغيير ، وهي بهذا أكثر من البديلات في هذا الجانب ، إلا أنها أقل درجة من العموميات التي تعتبر أكثر جوانب الثقافة مقاومة للتغيير .

وقد اهتم التربويون بتقسم " رالف لنتون " ووجدوا فيه نموذجا يمكن مطابقته على التعليم بمراحله المختلفة . فيذهبون إلى القول بأن عموميات الثقافة هي وظيفة التعليم العام باعتباره التعليم الذي يعنى باكساب الناشئة العناصر الثقافية الأساسية التي توجد بينهم وتحقق تماسكهم الاجتماعي . وأصبح الهدف الرئيسي للتعليم العام العناية بتعليم مهارات الاتصال والقيم الدينية وألوان السلوك الاجتماعي والحد الأدنى الضروري من الثقافة القومية التي يمكن الناشئة من التفاعل مع مجتمعهم والاشتراك فيه اشتراكا فعالا . وليس من الضروري بالطبع أن يتضمن المنهج المدرسي كل عموميات الثقافة ، فهناك أشياء مثل الطريقة التي نحي بها الأصدقاء أو الطريقة التي نرتدي بها ملابسنا يمكن أن تترك للفرد ذاته لتعلمها بطريقة ذاتية أو بتوجيه من الأسرة أو بتشربها من خلال سلوكه في الحياة الاجتماعية العامة .

وينبغي على المنهج المدرسي إذن أن يؤكد على العناصر الأساسية في العموميات الثقافية كاللغة والدين والقيم والمعارف والمهارات والمشاعر والأحاسيس التي تكفل للمجتمع الثبات والاتزان والاستقرار والحيوية وتحقق للفرد امكانية الحياة والنمو في مجتمعه والسيطرة والضبط على سلوكه .

أما خصوصيات الثقافة فتمثل طرائق التفكير والعمل المرتبطة بمجموعة مهنية مثل الأطباء والمهندسين والمحامين والمعلمين أو بطبقة اجتماعية معينة كما أشرنا . وفي المجتمع الطبقي الذي يعترف بالتمايز الطبقي بين أفراده تستهدف

التربية إعداد طبقة الصفوة إعدادا يخدم مصالحهم واهتماماتهم ويقوم على أساس قيمهم وعاداتهم وسلوكهم . وقد ترتب على وجود هذا النوع من التربية في كثير من المجتمعات حدوث ازدواجية تعليمية تمثلت في وجود نمط راق من التربية لأبناء الصفوة أو الفئة المختارة ونمط آخر متواضع للسوقة من الناس أو عوامهم . وهذا يفسر من الناحية التاريخية لماذا كانت الأنماط التربوية الأعلى كالتعليم الثانوي والعالي مقصورة على القلة أو الصفوة . بل إنه في المجتمعات الأكثر ديمقراطية والتي وجد بها نظام تعليمي واحد نجد أن المنهج المدرسي في مستوياته ا لعليا قد يعكس تمايزا طبقيا . ذلك أن التربية الموجهة إلى أغراض مهنية ترتبط دائما باحتياجات أفراد من مستويات اجتماعية واقتصادية معينة .

وينظر إلى خصوصيات الثقافة على أنها من اختصاص التعليم العالي والفني والمهني باعتبار أن هذه الألوان من التعليم تهدف إلى الإعداد للمهن والحرف المختلفة . وهي لهذا تقوم على نوع خاص من الثقافة تستهدف به إعداد مجموعة من الأفراد لعمل معين أو مهنة معينة وإكسابهم المهارات المعرفية والعملية الضرورية لهذا الإعداد .

أما بديلات الثقافة فليست مقصورة على نوع معين من التعليم . وإنما تتصل بأذواق الفرد وما يحب ومايكره . ومن الطبيعي أن يكون للتنشئة الاجتماعية والتربية دور في تنمية هذا الذوق وترقيته . ولهذا تعتبر بديلات الثقافة محصلة لعوامل متشابكة من المؤثرات التربوية .

انتقال الثقافة :

لايمكن نقل الثقافة من فرد إلى آخر أو من مجتمع إلى أخر إلا عن طريق تعبيراتها الظاهرة الخارجية . فكل ثقافة تكتسب بالتعليم ، ولاتورث بطريقة بيولوجية ، ولايمكن تعميمها للخارج واتاحة فرصة تعلمها لأفراد جدد إلا عن طريق السلوك .

ويتم نقل الثقافة من خلال المنظمات الرسمية وغير الرسمية في المجتمع كالأسرة والمدرسة وأجهزة الإعلام وغيرها من القوى المعلمة في المجتمع . وتقوم المجموعات العمرية المختلفة بدورها في عملية نقل الثقافة . ففي الوقت الذي يتعلم فيه الفرد أشياء كثيرة من ألوئك الذين يكبرونه سنا ، نجد أنه يتعلم أشياء

كثيرة أيضا من أترابه وأصحابه ورفاقه . بل إن صلاته بهؤلاء تكون عادة أوثق وأكثر ألفة وأقل رسمية من صلاته بمن يكبرونه سنا . وقد يفسر ذلك في ضوء الاهتمامات والميول المشترك التي تجمع بينهم وطبيعة المرحلة العمرية التي يمرون بها واشتراكهم في صفات واحدة تجمع بينهم . فمن النادر أن يقوم البالغون الكبار بتعليم الصغار " لعب البلي " مثلا ، وإنما يتعلمها الطفل من طفل آخر . ويمكن أن نضرب مثلا آخر بالطرق التي يستخدمها المراهقون للتوددب بعضهم إل بعض. فهذه أيضا تنقل من خلال المجموعة العمرية الواحدة .

وتنتقل الثقافة من خلال وسائل الاتصال بالرموز . فالإنسان كما يقول "ارنست كاسيرر " ليس مجرد حيوان عاقل ، إنه انفعالي كما أنه عاقل أيضا . بل إنه على الأصح حيوان رمزي ، أي مستخدم للرموز . والرموز لاتحل مباشرة محل الأشياء ، بل بالأحرى محل مفاهيم الأشياء . وهي خلافا للإشارات تستخدم القدرة على التفكير المجرد . فالمفاهيم بعد أن يعبر عنها في لغة تصبح كلمات . والإنسان وحده يستخدم الرموز ، لأن الإنسان وحده يفكر بطريقة مجردة. أما الحيوان فإنه لا يستطيع أن يميز بين الإشارة إلى شيء وبين الشيء نفسه . وهكذا يكون عالم الإنسان برمته مفعما بالرموز التي خلقتها الثقافة عن طريق اللغة . ويقول كاسيرر في عبارة مشهورة :

« إن الإنسان لم يعد يعيش في مجرد عالم فيزيقي ، بل يعيش في عالم رمزي.واللغة والدين والفن والأسطورة هي أجزاء من هذا الكون.ولايستطيع الإنسان أن يجابه الواقع مباشرة.ولايستطيع أن يراه كما هو وجها لوجه.إن عليه أن يغلف نفسه في صيغ لغوية وصور ذهنية فنية ورموز أسطورية وطقوس دينية بحيث لايستطيع أن يرى أويعرف شيئا إلابتدخل هذه الوسيلة الرمزية المصطنعة».

وهناك من يعتقد أن هذه النظرة مبالغ فيها ، ذلك أن قدرا كبيرا من خبراتنا تتكيف في ضوء الثقافة . والكلمة تأخذ ترتيبها في اللغة التي ربما تكون أقوى العوامل التكيفية بالثقافة برغم أها تبدو أقلها فعالية . فأي لغة تؤدي عددا من الوظائف . فنحن من خلالها نوصل الأفكار والمعلومات . ومن خلالها أيضا نعبر عن أنفسنا وننفس عن انفعالاتنا ، ونحمل الآخرين على التفكير والإحساس بالطرق التي نفضلها.وأكثر من هذا فإن اللغة هي وسيلة لتفسير الخبرة .وتؤدي بنا إلى النظرة إلى الواقع بطرق معينة ، بالتأكيد على بعض ملامحه .

إن الثقافة البشرية مدينة للغة في غنى محتوها الذي يميزها عن أي أنشطة لدى الحيوان . فاللغة نفسها جزء من الثقافة . وهي شكل من أشكال السلوك المتعلم المنقول . وعلى الفرد أن يكتسبها ويتعلمها بنفس الطريقة التي يكتسب بها أية مادة أخرى من مواد الثقافة . بل إن اللغة هي أول ما يتعلمه الإنسان . وعندما يتعلمها تصبح مفتاحا يفتح له شتى مجالات الثقافة وتصبح وسيلته في اكتساب المعرفة .

وبواسطة اللغة يمكن للفرد أن ينقل كل خبرته تقريبا إلى الآخرين . بيد أن الغنى في التراث الثقافي البشري يفوق الوصف ويتعاظم بدرجة كبيرة تجعله من المستحيل على أي فرد أن يحتكره أو أن يكون مقصورا عليه . فهناك حدود لقدرة تعلم أي شخص . والثقافات تستطيع بلوغ ما تصل إليه من خصب وغنى لأن الذين يحملونها هم مجموعات من الأفراد . وهي في مجموعها الكلي أكبر بكثير مما يحصله منها فرد بمفرده . وهكذا يمكن أن نرفض ببساطة ما يقال بأنه لم يأت بعد أرسطو رجل ألم بالمجموع الكلي للمعرفة في زمانه (لنتون : ص ١١٧) . ذلك لأن الثقافة بما تتضمنه من المعارف أضخم بكثير من أن يحيط بها رجل واحد .

ويعتمد انتقال الثقافة على قدرة الإنسان النامية إلى حد بعيد على استخدام الرموز ، بل وعلى مرونته . ومن ثم على قدرته على التعلم . والإنسان - خلافا للحيوان - يستجيب إلى أكبر حد لبيئته بطريقة غريزية عليه أن يتعلم كيف يستخدم بيئته ويتكيف معها . ولقد أجبرته غرائزه ودوافعه الفطرية من خلال المحاولة والخطأ على تطوير حلول لمشكلات الحياة نقلها إلى ذريته الذين يعمدون بسبب افتقادهم إلى حلول غريزية من ذوات أنفسهم إلى تعلم هذا التراث بحكم الضرورة . ويقول الفيلسوف الفرنسي " دور كايم " إن المسافة بين الإمكانيات الفجة التي يكون عليها الإنسان في لحظة ميلاده وبين الشخصية الناضجة التي ينبغي أن يصير عليها ليلعب دورا مفيدا بالمجتمع ، إنما هي مسافة لايستهان بها. وعلى التربية أن تحمل الطفل على قطعها . وهكذا نرى أن ثمة مجالا واسعا مفتوحا أمام تأثير التربية على الإنسان ليتعلم كيف يعيش على نحو أفضل .

نظريات الثقافة * :

هناك ثلاث وجهات نظر للثقافة : أولاها وجهة النظر العلوية فوق العضوية Super Organic التي تعتبر الثقافة حقيقة علوية توجد بعيدا عن نطاق حامليها من الأفراد ، وتعمل وفق قوانينها الخاصة بها . ثانيتها وجهة النظر التصورية Con-ceptional التي ترى أن الثقافة ليست كينونة مستقلة بذاتها على الإطلاق بل هي مفهوم يستخدمه علماء الإنسان للدلالة على مجموعة من الوقائع المختلفة المتفرقة . وثالثتها وجهة النظر الواقعية Realistic التي تنظر إلى الثقافة على أنها مفهوم وكينونة معا . فهي مفهوم لأنها مركب عقلي من العلم الطبيعي وعلم الإنسان . وهي كينونة واقعية لأن هذا المفهوم يدل على الطريق الذي ينتظم وفقه ظواهر معينة بالفعل ، وسنفصل الكلام عن وجهات النظر الثلاث من حيث علاقتها بسؤالين كبيرين في التربية هما:

١ - هل يجب أن تنشد المدرسة بالدرجة الأولى التأثير في تطور الثقافة ، أي أنها تعمل على تشرب الناشئة الثقافة ؟

٢ - هل يجب على الطفل أن يتعلم هذا التراث كما يقدمه له مدرسوه ؟ أم أن من الواجب عليه أن يكون بنفسه فكرته الخاصة وصورته الشخصية عن الثقافة ؟

أولا : وجهة النظر العلوية أو فوق العضوية للثقافة :

إن جوهر النظرة العلوية أو فوق العضوية هو أن الثقافة حقيقة فريدة .وأن لها قوانينها الخاصة بها . وعلى الرغم من وجود عوامل معينة ، تكنولوجية واقتصادية مثلا قد تشكل المصدر الرئيسي للنمو الثقافي ، فلا يعني ذلك رد الثقافة إلى هذه العوامل . فالثقافة لاتفسر في ضوء مصادرها كما لايفسر الجزئ في ضوء ذراته . والمصادر تشرح كيف انتهت الثقافة إلى ما انتهت إليه لأن الثقافة باختصار هي أكثر من نتيجة القوى الاجتماعية أو الاقتصادية ، إنها الحقيقة التي تجعل تلك القوى ممكنة .

---

* اعتمدنا في هذا الجزء على كتاب : نيللر : الأصول الثقافية للتربية : ترجمة محمد منير مرسي وآخرين ،عالم الكتب ،القاهرة ، ١٩٧٦ .

ولم يقدم أحد وجهة النظر فوق العضوية بشكل أروع مما قدمها مبدعها إميل دور كايم ، المفكر الفرنسي المعروف . لقد قال إن الثقافة تتشكل من " عوامل اجتماعية " ومن " تمثيلات جمعية " هي طرق للتفكير والتصرف والإحساس مستقلة عن الفرد وخارجة عن نطاقه . وتفرض هذه الأنماط من السلوك قوة إجبار أو قهر على الفرد تتمثل في معاقبته سواء بطريقة قانونية أم بطريقة خلقية عند مخالفتها أو الإخلال بها .

والثقافة لدى " دور كايم " تفهم كمجموعة من العوامل الاجتماعية . فهي جوهرية وواقعة وراء الخبرة ، وتعمل عملها في دخائل الأفراد ، مؤدية بهم إلى السلوك وفق طرق معينة . وهي من جهة أخرى توجد خارج نطاقهم في الصور الجمعية التي ينبغي عليهم التطابق معها . ولقد أعلن دور كايم أن الثقافة "شعور جمعي " و " أنهاكائن نفسي له طريقته الخاصة من التفكير والإحساس والتصرف المختلف عن تلك الطريقة الخاصة بالأفراد الذين يكونونه " . ولقد اعتقد مثل "هيجل" أن أفضل ما لدى الإنسان إنما يتأتي له عن ثقافته عندما تعمل بداخله . وهكذا فإن الشخص يحقق ذاته إلى الحد الذي يصبح عنده مندرجا تحت لواء ثقافته ، وتصبح مطامحها مطامحه . وعلى العكس من هذا كلما كان الإنسان أكثر تمركزا حول ذاته،صارت شخصيته أكثر قصورا ، وكان أكثر عرضة إلى التقريع والإنحسار.

ولقد ذاعت بين علماء الإنسان الناطقين بالإنجليزية وجهة النظر العلوية أو فوق العضوية بواسطة " مالينوفسكي " و " كرويبر " Kroeber الذي نحت لفظ "فوق عضوي " . ولكنه بعد ذلك اقترب من الموقف التصوري واليوم بعتبر " ليزلي هوايت " زعيم المشايعين لها .

والسلوك الإنسان من وجهة النظر فوق العضوية قد يتحدد ثقافيا . وهو الذي يجعل الثقافة ممكنة لأنه لاتوجد ثقافة بدون أن يكون لها " ناقلون " من البشر . والثقافة تتحكم في حياة الناس تماما كما تتحكم نصوص الرواية أو التمثيلية في كلمات وتصرفات الممثلين . يقول هوايت : " إن الفرد تنظيم من قوى وعناصر ثقافية تجد تعبيرا خارجيا لها من خلاله . والفرد منظورا إليه على هذا النحو ليس سوى تعبير عن التراث فوق العضوي في صيغة جسمية .

والإنسان يستطيع أن يتحكم في جوانب معينة من العالم الطبيعي ، بيد أنه لايستطيع التحكم في الثقافة لأنه هو نفسه جزء منها .

المضامين التربوية :

للنظرة فوق العضوية ثلاثة مضامين رئيسية للتربية : المضمون الأول هو أن التربية عملية تتحكم الثقافة بواسطتها في الناس وتشكلهم في ضوء أهدافها . إنها الوسيلة التي تستخدم بواسطة المجتمع لتحقيق أهدافه الخاصة . ففي وقت السلم يربى المجتمع للسلم وفي حالة الحرب يربى للحرب . وليس الشعب هو الذي يتحكم في ثقافته من خلال التربية ، بل الأحرى هو أن التربية مدرسية وغير مدرسية تعد مختلف الأجيال في ظل نظام ثقافي معين . إن السياسات التربوية تتحدد بواسطة الأفرد ، ومن خلالهم تتحقق قوى الثقافة وأهدافها . وعندما يختار المربون فهذا يعني أن الثقافة هي التي تختار من خلالهم .

المضمون الثاني هو أنه إذا كانت الثقافة تحدد سلوك أفرادها ، فإن المنهج ينبغي أن يوضع في ضوء دراسة صريحة لثقافة الدولة من حين لآخر . وينبغي أن يتضمن جميع الأفكار والاتجاهات والمهارات التي تزيد من فعالية الفرد في نقل ثقافته . فالمواد الدراسية يجب أن تكون مغربلة بعناية حتى نضمن ارتباطها ارتباطا مباشرا بالمنهج الأساسي . ولن تكون تربية الطفل مناسبة إذا اقتصرت على دراسة ما يثير اهتمامه من ثقافته . بل الأحرى أن يركز اهتمامه على العناصر التي ترى السلطات التربوية بعد دراسة دقيقة للاحتياجات الثقافية أن معرفتها ضرورية له .

المضمون الثالث هو أن النظرة فوق العضوية تقتضي إشرافا حكوميا مباشرا على التربية لضمان قيام المدرسين بتعليم الناشئة الأفكار والاتجاهات والمهارات الضرورية للاستمرار الثقافي . وهي تقتضي أيضا تركيزاً أكثر لأن الثقافة المعاصرة تميل إلى محو الفروق الإقليمية ، ومن ثم التركيز على تربية أساسية واحدة للجميع . هذا التركيز إلى جانب إشراف الدولة يؤديان بدورهما إلى الحد من إنشاء المدارس الخاصة ، ولكن لايعني ذلك إلغاءها .

نقد وجهة النظر العلوية أو فوق العضوية :

يمكن توجيه النقد إلى وجهة النظر العلوية أو فوق العضوية بأنها تعزل الثقافة وقواها عن العوامل الإنسانية التي تجعلها ممكنة . ويرى أصحاب ا لنظرية فوق العضوية أن ضغط الثقافة على السلوك الإنساني حادث على نطاق واسع ، واستخلصوا من ذلك أن الثقافة لابد أن تكون كينونة مستقلة . ومع هذا فالواقع أن الضغوط الثقافية جميعها تمارس بواسطة الأفراد . فالتضخم يمثل ظاهرة ثقافية . وهو نتيجة زيادة حجم المال على إنتاج البضائع والخدمات . ولكن الناس هم ا لذين يصنعون المال والبضائع والخدمات . فالتضخم إذن ليس عملية مستقلة عن الناس ، بل نتيجة أنواع معينة من السلوك الإنساني الجمعي . والتربية النظامية بالمثل ليس قوة ثقافية مستقلة ، بل هي بالأحرى وسيلة توصل إليها الناس لتحقيق أهداف معينة . وينبغي أن نشير إلى أن الثقافة تضع قيودا على تصرفاتنا ، لكننا في حدود تلك القيود نكون أحرارا نسبيا من حتميتها ، أي أنها حرية في إطار القواعد والنظام شأن كثير من الأمور . فلعبة الكرة لها قواعدها وإشارات المرور لها قواعدها وسير القطار على الفضبان له قواعده . وهذه القواعد لاتعني تقييد الحرية ، وإنما هي جزء من النظام الذي يجعل لهذه الحرية معنى .

والثقافة فوق عضوية ، بمعنى أنها علوية لها قوانينها الخاصة ، وتعمر أكثر مما يعمر الأفراد ، وهي مسئولة إلى حد بعيد عن صياغة السلوك الإنساني . لكنها ليست كينونة مستقلة وتحدث ذاتها وتوجه ذاتها . فالفرد بعد أن يتعلم أشكال السلوك المقبولة لمجتمعه يمارسها بطريقة لاشعورية عادة . وقد يواجه صراعات مع الأفراد الآخرين . وهكذا يبدو أنه خاضع لأنماط سلوكية توجد مستقلة عن ذاتها . بيد أنه في الواقع يكون متوافقا مع العادات التي سبق أن تشربها . فالعادات قد تعدل سلوك الناس ، لكنها ليست مستقلة عنهم .

ثانيا : وجهة النظر التصورية للثقافة :

يعتقد معظم علماء الإنسان الأمريكيين فيما أطلق عليه اسم وجهة النظر التصورية للثقافة . فهم يقولون إن الثقافة مفهوم أومركب عقلي . وما يلاحظه الناس ليس الثقافة في حد ذاتها ، بل هي أشكال من السلوك المتعلم الذي يمتزج بانتاجاتهم المادية . ومن هنا جردت فكرة الثقافة . يقول رالف لنتون : " إن

الثقافة تصقل عقول الأفراد الذين يشكلون مجتمعا ما . وهي تستمد جميع صفاتها من شخصياتهم وتفاعلها سويا. والناس أنفسهم يتأثرون بما سبق أن فعله الآخرون في الماضي . فالممارسة الثقافية كالمصافحة باليدين أو شرب القهوة أو إحدى النتاجات الصناعية كالطائرة وغيرها لاتتأتى عن قوى فوق إنسانية ، بل إنها تستحدث نتيجة حاجة للناس للعيش سويا . .

المضامين التربوية :

إن النظرة التصورية تعالج الثقافة كخاصية للسلوك الإنساني لا ككينونة في حد ذاتها. وهي لهذا تتفق مع وجهة النظر القائلة بأن الطفل ينبغي أن يتعلم التراث الثقافي ، وأن يكون صورته عن الثقافة بخبرته الخاصة في ضوء خبرة الآخرين . وبشرط أن يصل في النهاية إلى صورة موضوعية للثقافة . ومع هذا فالنزعة التصورية لاتؤيد القول بأن على الطفل أن يتعلم ما يقبله ذهنه . فالثقافة في حد ذاتها قد لاتكون حقيقية مطلقة . ولكنها تتضمن عددا كبيرا من أنماط السلوك التي ينبغي أن يتوافق معها الفرد بنفس الطريقة التي ينهج الآخرون وفقها . ولذا فإن عليه أن يتعلم هذه الأنماط جميعا بقضها وقضيضها لا مايحبه منها فقط . والنزعة التصورية تنسجم مع المبدأ القائل بأن التربية يمكن أن تكون أداة للإصلاح الاجتماعي . ولكنها لاتؤدي بالضرورة إلى هذه النتيجة ، ومما لاشك فيه أن أصحاب النظرة التصورية لايعلقون أملا كبيرا على المدرسة بقدر ما يعلق أصحاب النزعة الإصلاحية الاجتماعية . ومع هذا فإن أصحاب النظرة التصورية يوافقون على أن المدرسة قد لاتكون قادرة على التغيير الثقافي، لكنها تستطيع أن تفعل الكثير لخلق جو يساعد على التغييير.وهو أمر ضروري يوفر للمجددين أن يجدوا أفرادا مقلدين لهم.وهكذا تظهر أنماط ثقافية جديدة ودائمة .

ثالثا : وجهة النظر الواقعية للثقافة :

هناك نفر قليل من أصحاب النظريات يؤكدون أن الثقافة مفهوم وحقيقة في نفس الوقت . فالثقافة مجرد ، بمعنى أنها لايمكن ملاحظة مقوماتها أو الأنماط المكونة لها . إن الثقافة في حد ذاتها مركب عقلي ، بمعنى أنها ليست كينونة قابلة للملاحظة .ولكن الثقافة بمعنى آخر حقيقة واقعة . لأننا إذا كنا لانستطيع مداحظتها برمتها في وقت واحد ، فإنها لاتختلف في هذا الاعتبار عن الكينونات الأخرى . شأنها شأن النظام الشمسي الذي لاتناقش حقيقته .

ويتفق الواقعيون والتصوريون على نبذ الحتمية الثقافية الكاملة . وعلى الرغم من أن الأحداث الماضية والحاضرة تحدد مايستطيع الأعضاء في ثقافة ما عمله في لحظة معينة ، فإن الثقافات لاتتبع منطقا متصلبا من أنفسها .

إن السبب المباشر للتغير الاجتماعي هو سوء التكيف الفردي . ففي أوقات الاستياء المنتشر على نطاق واسع يكون لقلة من الأفراد المبتكرين أن يستحدثوا أنماطا ثقافية جديدة سرعان ما يتقبلها الآخرون . وهكذا يرجع التغير الاجتماعي في أصله إلى التوترات والاستياءات التي يحس بها أفراد معينون . وعندما يكون عدم الاستقرار شديدا بدرجة كافية ، فإن أنماطا جديدة تنشأ لدى أفراد قليلين مبتكرين يقرها المجتمع بأسره تدريجيا .

النظرة الوقعية والتربية :

تقترب النظرة الواقعية للثقافة من مدارس الفكر التربوي التي ترى تكييف الطفل لواقع موضوعي سواء أكان واقعا طبيعيا أم ثقافيا . وذلك بأن تغرس في عقله معرفة وقيما ومهارات معينة تكون الثقافة قد اختارتها بالفعل . والواقعية تؤكد أكثر مما تؤكد التصورية على المطالبة بنظام تربوي يعمل على تدريب الناس على الحكم وعلى تغيير ثقافتهم تبعا لقيمها الأساسية .

ويريد كثير من التقليديين التربويين التوصل إلى هذه الغاية بأن ينشئوا الصغار على حقائق وقيم يفترض أنها دائمة . ويدعو مربون تقليديون آخرون إلى التدريب العملي الذي يعتبر ضروريا للناشئة إذا ما أريد لهم أن يختاروا تلك الأهداف التي تسمح بها حالة الثقافة،وإذا ما أريد لهم استخدام قوانين الثقافة بقدر معرفتها حتى يحققوا مثل تلك الأهداف . ويجب أن يكون التغيير بتعبير آخر تطويرا وليس ثوريا ، أي أنه ينبغي أن يستهدي بالفروق الأساسية للثقافة .

خصائص الثقافة : تتميز الثقافة بعدة خصائص من أهمها :

١ - أنها عضوية وفوق عضوية في وقت واحد : فهي عضوية في أنها متأصلة بصفة جوهرية في الكائن الحي الإنساني . وبدون أن يعمل الناس ويفكروا ويحسوا ويقوموا بصنع المنتجات الصناعية لايمكن تصور قيام ثقافة على الإطلاق . والثقافة فوق عضوية بمنى أنها تعمر بعد الأجيال المتعاقبة . وبمعنى أن مضمونها هو نتاج للمجتمع الإنساني أكثر من أن يكون نتاجا

لبيولوجية الإنسان أو خصائصه الوراثية .

٢ - أنها علنية ومتخفية في نفس الوقت : فهي علنية في تلك الأعمال والنتاجات الصناعية كالمنازل والملابس وأشكال الحديث التي يمكن مشاهدتها بطريق مباشر . وهي متخفية أو مستترة في تلك الجوانب كموقفها المتضمن تجاه الطبيعة وعالم الغيب وعالم الروح ، وهو ما يجب استنتاجه مما يقوله أفراد المجتمع ويفعلونه .

٣ - أنها واضحة ومضمرة : فالثقافة الواضحة أو الصريحة تتكون من جميع الأساليب السلوكية كقيادة السيارات وتكوين علاقات اجتماعية والمشاركة في لعبة رياضية ، تلك التي يمكن أن يصفها بسهولة أولئك الذين يمارسونها . أما الثقافة المضمرة فإنها تتضمن تلك الأشياء التي يأخذها الناس على علاتها تقريبا والتي لايستطيعون تفسيرها بسهولة . فمثلا جميع الراشدين العقلاء يستطيعون التحدث بلغة ثقافتهم . ولكن قليلا منهم يستطيعون تفسير قواعدها ونحوها وصرفها وبناء جملها بأي تفصيل.

٤ - أنها مثالية وواقعية : فالثقافة المثالية تشتمل الطرق التي يعتقد الناس أن الواجب عليهم السلوك وفقها ، أو التي قد يرغبون في إنتاجها أو التي يعتقدون أن من الواجب عليهم السلوك بمقتضاها . أما الثقافة الواقعية فإنها تتشكل من سلوكهم الفعلي . وفي الثقافات التي تجتاز تغير سريعا فإن الفاصل بين الثقافة المثالية والثقافة الواقعية آخذ في الاتساع . ذلك أنه كقاعدة عامة نجد أن الظروف المتبدلة وبخاصة التكنولوجيا المتغيرة سرعان ما تفوق في سرعتها المثل العليا . قارن بين المثل الأعلى المتعلق بالفردية وبين السيطرة الفعلية للاقتصاد بواسطة عدد قليل نسبيا من الشركات الكبيرة في المجتمعات الرأسمالية .

٥ - أنها ثابتة ومتغيرة : والواقع أن كل صفة من هاتين الصفتين تستلزم منطقيا الصفة الأخرى . ذلك أن التغير لايمكن أن يقاس إلا في مقابل العناصر الثابتة والعناصر التي تتغير بسرعة أكبر . وبعض الثقافات أكثر مرونة من غيرها ، ويمكن أن تتوافق مع درجة سريعة من التغير دون أن تصاب بالتحلل . وبالإضافة إلى هذا فإن إحدى الثقافات قد تكون أكثر

تقبلا للتغير في بعض الاعتبارات عنها في اعتبارات أخرى . ففي الثقافات الغربية نجد أن التكنولوجيا مثلا تتغير بشكل أسرع من تغير القيم . ومع هذا فلا القيم ولا الأيدويولوجية تظل ثابتة ، وإنما تكون نسبية وشاملة . فهي نسبية لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وتختلف من مجتمع لآخر ، ومن عصر لعصر ، وهي شاملة لأنها تنتظم المجتمع الإنساني برمته .

وسنفصل الكلام عن نسبية الثقافة وشمولها وتغيرها في السطور التالية :

أ ـ النسبية الثقافية :

إن مضمون النسبية الثقافية هي أن كل ثقافة فريدة في بابها ، ويجب لذلك أن تحلل في حد ذاتها . والمقارنة المستعرضة قد تكشف عن أوجه شبه بين ثقافات معينة ولكن ليست هناك صفات مشتركة فيما بينها جميعا بالضرورة . وبذا يكون التصنيف الشامل صعبا إلى حد بعيد ، وربما يكون مستحيلا . وتتطلب النسبية الثقافية أيضا أن تكون الطبيعة الإنسانية مرنة في ضوء الزمان والمكان.

وقد تشكلت النسبية الثقافية بشكل واضح على يد " فرانز بورس " وعلى يد المدرسة الواقعية لدحض الاعتقاد السائد في القرن التاسع عشر القائل بطريق عام وحيد للتطور الثقافي . وتباعا " لبورس " كل ثقافة فريدة في بابها لأنها جزئيا نتاج الظروف التاريخية غير المتواترة . ولقد برهنت " روث بينيديكت " فيما بعد على أن كل ثقافة فريدة في بابها ، وأنها التعبير الوحيد والصحيح عن الامكانيات الإنسانية . ومن ثم فليس ثمة معيار شامل للممارسة الثقافية . وأصحاب النزعة الوظيفية كانوا أيضا نسبيين في منافحتهم بأن العناصر الثقافية ينبغي ألا يحكم عليها إلا بما يسهم في رفع مكانة ثقافتها الخاصة وليس في ضوء معايير مستمدة من ثقافات أخرى .

والنسبية الثقافية هي أحد أشكال النسبية الخلقية ، ذلك أنها تتطلب أن تكون القيم الخلقية غير صحيحة إلا بالنسبة للثقافة التي تؤمن بها . فهي تعني مثلا أنه ليس لنا الحق في نقد عادات الشعوب الأخرى لأننا بذلك نكون قد امتددنا بقيمنا الخاصة خارج السياق الوحيد الذي تختص به . والميزة الكبرى في هذا النوع من النسبية الخلقية هي أنها تجعلنا متسامحين تجاه الثقافات الأخرى ولاتصر على البت في أمورها باسم قيمنا الخاصة . أي ينبغي أن نراعي الشريعة الخلقية لثقافتنا بينما نحترم حق الشعب الآخر في مراعاة شرائعه الخاصة .

ومع هذا فإن النسبية الثقافية تخلق أيضا مشكلة خلقية خاصة بها . فهل لنا أن نتقبل أي عرف باعتبار أن له ما يبرره بغض النظر عن مدى رفضنا أو مقتنا له طالما أنه يشكل جزءا متكاملا في ثقافة أخرى ؟ أليس لنا الحق في أن نعترض أو أن ننعى على الظلم والتمييز العنصري والإبادة الجماعية وأكل لحوم البشر والرق والتعذيب الجسمي لمجرد أنها تمارس بواسطة شعوب أخرى؟ . لقد عرف عن النسبيين المحترفين نقدهم لممارسات كان عليهم من الناحية النظرية التسامح نحوها .

إن النسبية تجعل من أي ثقافة الإطار النهائي للمرجع الخلقي . فالنسبي يرى أن الأفراد وحدهم هم الذين يحكم عليهم بسوء التكيف وليس الثقافات . وقد أشار " فروم " إلى أن النسبي لايعترف منطقيا بأن إحدى الثقافات قد تنحرف بتطور أفرادها لأنه ينكر وجود أية معايير للحكم على الثقافات . إن النسبية تجعل من المستحيل علينا أن نطور ثقافتنا الخاصة على أساس ثقافات أخرى نعتقد بأنها أعلى من ثقافتنا . لأن النسبية تجعل من العبث اعتبار مثل هذه القيم أعلى على الإطلاق .

النسبية الثقافية والتربية :

إذا كانت كل ثقافة كما يعتقد النسبي فريدة في بابها ،إذن لكل ثقافة حاجاتها الخاصة التي ينبغي أن تشبعها التربية . وليس هناك شكل واحد من أشكال التربية مناسب بشكل شامل وعام . وإذا كان الإنسان الناضج هو نتاج ثقافة أكثر مما هو نتاج ما يسمى بالطبيعة الإنسانية نتج عن هذا أنه لاتوجد تربية وحيدة مناسبة للإنسان في ذاته . بل هناك مدى من النظم التربوية المتنوعة المناسبة للناس بثقافاتهم المختلفة . ذلك أن الطبيعة الإنسانية هي نتاج زمانها ومكانها .

ويوجه النسبيون الثقافيون الانتباه إلى قدرة الثقافات على التغير ، وذلك بإنكارهم أن هناك طبيعة إنسانية عامة أو مثلا أعلى شاملا للثقافة . فالتربية تختلف من ثقافة لأخرى . بل إنها قد تقبل التغيير في نطاق ثقافة واحدة . إن المزايا الأصيلة لأي نظام تربوي ، وبخاصة تلك النظم التي عليها أن تجابه التغير ، تتمثل في المرونة والمطاوعة والرغبة في التجريب .

وقد يؤدي التأكيد على خاصية التغير الثقافي إلى الاعتقاد بأن التربية ذاتها يمكن أن تدخل تغييرات في الثقافة ، أو ربما توجه طريقها . وإذا كانت

الثقافة مرنة ، فإن التربية لاتكون مقيدة كلية بالتراث . بل تكون حرة بشكل معقول في تشكيل الجيل التالي من جديد . وهكذا ينبغي على المدرسة أن تمهد الطريق لتغيير فكري بأن تغرس في تلاميذها نظرة عقلية متطورة . وتعني النسبية الثقافية بالنسبة للمعلم عدم التعصب لآرائه وعدم فرض آراء معينة على التلاميذ بدون مناقشة أو تفكير . كما تعني عدم تعصبه لثقافته القومية وتحقير الثقافات الأخرى . وينبغي أن ينمي لدى تلاميذه النظرة الموضوعية نحو تلك الثقافات الأخرى ، وأن ينشئهم على تقبل التطور والتغير كسنة للحياة ، وأن ينمي لديهم شعور الولاء والانتماء لثقافتهم القومية واحترامها . وفي نفس الوقت يوسع نظرتهم إلى هذا الانتماء ليشمل الانتماء الإنساني للبشرية جمعاء فكلنا لآدم وأدم من تراب .

شمول الثقافة :

إن الشمول يسلم بواقع التنوع الثقافي . ويؤكد أنه طالما أن الطبيعة الإنسانية في صيغتها الأساسية شاملة فإن الثقافة يجب أيضا أن تكون شاملة . وقد تفسر هذه الطبيعة الإنسانية الشاملة تنوع الثقافات والملامح المشتركة فيما بينها . والنوع الإنساني يتسم بالشمول . فثمة حقائق معينة بيولوجية وسيكولوجية بالإضافة إلى ظروف خاصة بالحياة الاجتماعية مشتركة بين جميع الناس في كل مكان . وبالتالي فإنها تتطلب أشكالا معينة من التعبير الثقافي . فجميع الثقافات يجب أن تلتقي مع الضرورات الشاملة للحياة الإنسانية . ويلخص " كلوكهوهن " هذه الضرورات بقوله :

« إن جميع الثقافات تشكل بصورة أساسية كثيرا من الإجابات المتمايزة عن نفس الأسئلة التي تقدمها البيولوجية الإنسانية وتعميمات الموقف الإنساني . ويجب أن يوفر كل مجتمع طرقا للحياة متفقا عليها ومشروعة لمعالجة بعض الظروف الشاملة مثل عجز الأطفال الصغار والحاجة إلى إشباع المتطلبات البيولوجية الأولية كالغذاء والدفء ، ووجود أفراد من أعمار مختلفة ومن طاقات مختلفة جسمية وغير جسمية . أما أوجه الشبه الأساسية للبيولوجيا الإنسانية بالعالم كله فهي ذات مدى بعيد من التباينات . وبنفس القدر هناك ضرورات معينة في الحياة الاجتماعية بغض النظر عن المكان الذي توجد فيه تلك الحياة أو الثقافة . ويتطلب التعاون من أجل الوجود حدا أدنى معينا من السلوك المشترك

ومن نظام مقنن للاتصال . كما يتطلب في الواقع قيما مقبولة لدى الأطراف المعنية . »

لكن ما هي بعض الخصائص الشاملة لثقافة ؟ إن جميع الثقافات تضع قيودا أخلاقية على العنف . وجميعها تربي إحساسا بالولاء ، ولجميعها طرق معينة في كسب العيش أو التجارة أو الصناعة . ولجميعها نظم تشريعية تتعلق بالأسرة . ولدى جميعها تصور معين عن الكون ومكانة الإنسان فيه . ولجميعها شريعة خلقية . ومن العموميات الأخرى التي تذكر كثيرا : اللغة ومجموعة من الاتجاهات نحو المشكلات الأساسية كالموت والتنظيم الاجتماعي والقانون . وبناء على أسس متشابهة كهذه يقيم كل مجتمع البنيان الفوقي المتميز للثقافة . وهكذا فإن حاجة إنسانية أو اهتماما إنسانيا ما قد ينتج مجموعة كبيرة من التعبيرات الثقافية . وتتطلب الشمولية الثقافية شمولية خلقية . فجميع الثقافات من هذه الزاوية تعترف بقيم معينة مشتركة تتناسب وحاجات الطبيعة الإنسانية . يقول " دافيد بيدني " :

« يحتل بقاء المجتمع بالنسبة لجميع الثقافات الأولوية على حياة الفرد . وليس هناك مجتمع يتغاضى عن الخيانة أو القتل أو الاغتصاب أو غشيان المحارم . وتعترف جميع المجتمعات بحقوق وواجبات متبادلة في الزواج وتدين التصرفات التي تهدد تماسك الأسرة . وجميع المجتمعات تعترف بالملكية الشخصية وتوفر أساليب معينة لتوزيع الفائض الاقتصادي على المحتاجين . . »

شمول الثقافة والتربية :

الطبيعة الإنسانية تبعا للنظرية التربوية التواترية طبيعة شاملة . فجوهر الإنسان يتمثل في الغاية التي يحيا من أجلها ، والتي يجب أن تكون غاية دينية وعقلية وفكرية . وقد يبدو كثير من الناس مختلفين من ثقافة إلى أخرى . ولكن هذه الغاية تظل على حالها . ولذا نجد أن جميع أشكال التربية في ظل جميع الظروف لها مثل أعلى ثابت - سواء كان موافقا عليه أم لا - لتنمية الموهبة العقلية ، وبالتالي لتحسين الإنسان كإنسان . ونظراً لأن القوى التي تحتك بالطبيعة الإنسانية متغيرة باستمرار ، فإن الوسائل المستخدمة لإحراز هذا المثل الأعلى سوف تختلف من ثقافة إلى أخرى . وكلما زادت معرفتنا عن الطبيعة

وكلما زدنا من دراستنالها زاد علمنا وتفهمنا لها .

ويجب على التربية أن تركز على الصفات العقلية والفكرية التي يشارك فيها جميع الناس وليس على الحاجات والاهتمامات التي يشعر بها الطفل الفرد. يقول " هتشنز " إني لا أنكر حقيقة الفروق الفردية ، ولكني أنكر أنها أهم حقيقة تتعلق بالناس أو أنها الحقيقة الوحيدة التي ينبغي أن يقوم على أساسها النظام التعليمي . إننا اليوم أكثر من أي وقت مضى بحاجة إلى تربية مرسومة لتنشئة إنسانية مشتركة بدلا من التقوقع في داخل فرديتنا . وهذا لايعني تجاهل هذه الفروق الفردية بين الناس .

وثمة اعتراضان موجهان إلى شمول الثقافة . الاعتراض الأول أن الشمول قد يحرف الوقائع الخاصة بالثقافات المختلفة لتكييفها وفق ثقافة ما شاملة . أما الاعتراض الثاني فهو أن الشمول يستخدم المعايير الخاصة بثقافة ما على الجنس البشري ككل باعتبارها نموذجا شاملا لنظام تربوي لا يناسب إلا مرحلة معينة في تطور ثقافة معينة . فحسب الشمول الثقافي يجب أن تعلم قيم خلقية وروحية معينة تعتبر مطلقة وشاملة .

الإنسان يصنع الثقافة وهي تصنعه :

تعد الثقافة من صنع يدي الإنسان وشرطاً للحياة الإنسانية . فالإنسان يولد الثقافة . ولكن الثقافة بدورها هي التي تصنع الإنسان . وإذا كنت تشك في هذا فانظر إلى طفلك . في بداية الميلاد يعتمد كلية على الآخرين ، بيد أنه يصير فيما بعد راشدا وقادراً على القيام بدوره في الحياة الاجتماعية بكل نشاطاتها . والذي أحدث ذلك هو التثقيف أو تشرب الثقافة . وهي عملية يتشرب الشخص بواسطتها أنماط الفكر والتصرف والإحساس التي تشكل ثقافته . ومن المعروف أن الأطفال الذين نشأوا بين الحيوانات يسلكون بطريقة مماثلة لها ، لكنهم إذا ما أخذوا صغارا بدرجة كافية فإن قدراتهم الإنسانية قد يتسنى نموها . فالتثقيف وحده هو الذي يحيل الإنسان بوصفه كائنا بيولوجيا إلى إنسان معترف بإنسانيته.

إن تثقيف الفرد خلال سنوات عمره المبكرة هي الوسيلة الأساسية المؤدية إلى الاستقرار الثقافي . بينما تكون العملية مع الراشدين الكبار أكثر أهمية في

إحداث التغيير ، وإن كثيرا من تثقيف الكبار هو أيضا نتيجة للحركة في قطاعات أخرى من الثقافة القائمة . وهي ترجع إلى التغير في المكانة الاجتماعية أو الطبقة أو المهنة . ووضح أنه كلما كان الطفل أكثر تثقيفا وأعمق تشربا بعادات الثقافة كان أكثر ميلا إلى أن يكون راشدا ملتزما .

والثقافة تشكلنا عقليا وانفعاليا ، بل إنها تكيف سماتنا الجسمية كالإيماءات وتعبيرات الوجه وطرق المشي والجلوس والأكل والنوم . ففي الهند تضطلع نساء القرية بأعمالهن المنزلية وهن جالسات أو جاثمات على الأرض . وحتى وقت قريب باليابان كانت النساء يعملن ويتزاورن وهن راكعات أو جالسات. وهكذا تحدد الثقافة كيف نفكر وكيف ندرك وكيف نسلك ونتصرف في المواقف المختلفة . وكل ثقافة هي نظام رمزي وتفرض شبكة رموزها على الواقع بحيث أن كل واحد منا يفهم هذه الحقيقة من خلال الرموز التي توفرها لها ثقافته. والواقع أن الحقيقة لاتوجد بالنسبة لنا إلا إلى الحد الذي تتيحه لنا ثقافتنا .

الثقافة من أجل الإنسان وضده :

إن الثقافة تعمل على تحرير الإنسان وعلى تقييده في نفس الوقت . فهي تقيد حريته في التصرف سواء من الخارج من خلال القانون والتشريعات ، أم من الداخل من خلال الإرادة والضمير . وهي بهذا تخلق النظام الاجتماعي الضروري للحياة الاجتماعية . وهي تحد الإنسان أيضا لأنها لاتسمح له إلا بتنمية شريحة واحدة من طاقته الكلية . إن " كروبير " وهو أحد العلماء المعروفين ينتهي إلى النتيجة القائية بأنه ما من ثقافة ترعى أكثر من ٢٪ أو ٣٪ من القدرة الإبداعية لدى الإنسان ، وبعض الثقافات تنمي النزعة الفطرية عند الإنسان المتدين ، وبعضها تنمي ميله إلى الفن . وما تزال ثقافات أخرى تنمي قدرته على الحرب .

وتحرر الثقافة الإنسان بأن توفر له حلولا جاهزة لكثير من مشكلاته . وبهذا تحرر طاقاته لأهداف أكثر إبداعية . وبفضل الثقافة نعرف ما نتوقعه من الآخرين وما يتوقعونه منا . ومن الثقافة نرث طرقا متباينة للتعامل مع الحياة كاللغة والدين والعلم والطب والأخلاق . وهي الأشياء التي لم يكن بمقدورنا خلقها من خبرتنا الشخصية . وباختصار فإن الثقافة تعطيناما أسماه " ألبورت " بالتخطيط المرتب سلفا للحياة .